مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية ٢٠٢٣ المجلد ١٣/ العدد ٢

الكرنفالية وتعدد الأصوات في رواية " حبي الضائع في بغداد " للأمريكي مايكل هيستنغز

م.د مسار غازي شناوه

كلية التربية الاساسية/ جامعة سومر/ قسم اللغة العربية

البريد الإلكتروني Email : Massaralshaami4@gamil.com

الكلمات المفتاحية: الكرنفالية ، الكرنفالية في الأدب ، الأنساق الكرنفالية في الرواية.

كيفية اقتباس البحث

شناوه ، مسار غازي، الكرنفالية وتعدد الأصوات في رواية " حبي الضائع في بغداد " للأمريكي مايكل هيستنغز، مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية،٢٠٢٣،المجلد:١٣ ،العدد:٢ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

Carnival and polyphony in the novel "My Lost Love in Baghdad" by the American Michael Hastings

Masar ghazi shanawa
College of Basic Education-Univiresity of sumer

Keywords : The Carnival , The Carnival in literature , The carnival person in the novel".

How To Cite This Article
shanawa, Masar ghazi, Carnival and polyphony in the novel "My Lost Love in Baghdad" by the American Michael Hastings, Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, Year :2023,Volume:13,Issue 2.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract

This study deals with the Carnaval as one of the modernist concepts that swept the literary and fictional arena in particular. This is by answering a number of questions in which we hope to fulfill the exact rationale of the concept, most notably .. Where did the carnival come from? Is it one of the terms coming to the Arab literary scene like many of the terms that the arena is witnessing today, or does it strike in the Arab depth, history and language? Is it purely literary? What is the motive that led her to literature? And what values are you trying to achieve? What are its main characteristics? This and many other questions that the mind openly bump into, we find the answer to in the upcoming papers.. Then this concept was discussed in the procedural model represented by the novel of the American Michael Hastings (My Lost Love in Baghdad), and accordingly the study included three research axes, the first of which is the concept of carnival in general, While the

second included a discussion of the relationship between the carnival and the novel from Bakhtin's perspective, and the third axis examined the carnival in the novel my lost love in Baghdad. The study also included a conclusion that addressed the most important findings.

ملخص البحث

تتناول هذه الدراسة الكرنفالية Carnaval بوصفها من المفاهيم الحداثوية التي اجتاحت الساحة الأدبية والروائية على وجه التحديد؛ ذلك بوساطة الإجابة عن جملة من الاسئلة نأمل فيها الايفاء بالحيثيات الدقيقة للمفهوم من أبرزها .. من أين جاءت الكرنفالية هل هي من المصطلحات الوافدة على الساحة الادبية العربية مثلها مثل الكثير من المصطلحات التي تشهدها الساحة اليوم أم أنها تضرب في العمق العربي تاريخا ولغة؟ وهل هي ذات محمول أدبي خالص؟ وما الباعث الذي ساقها الى الادب؟ وما هي القيم التي تحاول الكرنفالية ترسيخها في العالم الادبي ؟ وما أبرز خصائصها؟ هذا وغيره كثير من التساؤلات يرتطم بها الذهن علنا نجد لها الاجابة في الوريقات القادمة.. ومن ثم بحث هذا المفهوم في النموذج الاجرائي المتمثل برواية الامريكي مايكل هستنغز (حبي الضائع في بغداد)، وعليه اشتملت الدراسة على ثلاثة محاور بحث أولها في مفهوم الكرنفالية من حيث المفهوم والتطور، فيما اشتمل الثاني على مناقشة إنتقال مفهوم الكرنفال إلى الأدب من منظور باختين، أما المحور الثالث يبحث في الأنساق الكرنفالية في رواية حبي الضائع في بغداد. كما ضمت الدراسة خاتمة تناولت أهم النتائج التي توصلت اليها.

أولا: الكرنفالية في المفهوم والتطور

عند محاولة تفكيك بنية اللفظ لغويًا لم نعثر في المعاجم العربية الاّ على مصطلح (الكرنفال) الذي يُحيلنا على دلالة الاحتفالات والمسرات، والرقص، والغناء واللهو[١]

أما الكرنفالية فقد ارتبطت منذ العام (١٥٤٩م) في اللغة الايطالية بالاحتفالات الشعبية التي كانت تسبق موسم الصيام العظيم عند المسيحيين، والتي تميزت بالإنفتاح الكلي والإنغماس في الملذّات واقتحام كل المحظورات قبل الانقطاع عنها للصوم. ثم إبتعد المفهوم بعد ذلك عن الأبعاد الدينية، ليتجسّد بوصفها مظهرًا من مظاهر المعارضة كلّ محاولة احتواء سلطوي، ديني وأخلاقي خصوصًا، بإرتكازه على كسر النسق المتعارف عليه، والذي هيأ له وطوره المنظر الروسي "ميخائيل ميخالوفيتش باختين" وهو في صدد دراسته عن شعرية دستويفسكي " وفي دراسته اللاحقة عن (فرانسوا رابليه والثقافة الشعبية) يختلف عن معنى (الكرنفال) في المعاجم

الغربية ؛ ذلك أن باختين يرى أن الاحتفالية تتأسس حالما تبدأ معاني الاحتفال بتمزيق القيم الاجتماعية وتشويهها وقلبها رأسا على عقب، كما أنَّه قسمها الى ثلاثة أشكال رئيسية: **المشاهد الطقوسية، والتآليف اللفظية الهزلية، ومختلف أجناس اللغة البذيئة**، ورغم هذا التميز الاّ أنَّ فواصلها غير مانعة غالبا ما تجتمع معا في الكرنفال(٢).

ثانيا: الكرنفالية في الأدب

اذا كان الباعث على وجود الكرنفالية هو في الأساس ديني واجتماعي فما الذي دعا "باختين" إلى أن يستعيرها لعالم الادب؟

ثمة علاقة بين الادب والمجتمع، إذ أقرَ بها الفلاسفة والعلماء ومنظري الادب منذ القديم في ظل نظرية المحاكاة ، نظرية الانعكاس وشتى الآراء والافكار المطروحة في هذا المجال ولم تكدّ تظهر نظرية الجدلية الماركسية حتى تأسّس على بنياتها المنهج الاجتماعي للأدب، أحد المناهج الاساسية في دراسات الادبية والنقدية، وهو منهج يربط بين الادب والمجتمع في مختلف المستويات، ويدرس ويحلل العلاقة بين المجتمع والادب بوصفه انعكاسا للحياة، فالعلاقة بين الادب والمجتمع هي علاقة جذرية ومتماسكة لا يتولد فن عموما ولا أدب خصوصا الا في الجماعة ، فمن غير الممكن أن ينتج الفنان فنه ليمتع به نفسه، واذا أسلمنا بذلك ، من أين يستمد الفنان انفعاله الابداعي؟ أليس من تجاربه في بيئته؟ وهو يقتبس صوره وقيمه من الثقافة التي تلقاها منذ الصغر، ولعل الرواية بوصفها جنسا أدبيا ومجالا خاصا من الاجتماعي (متورطاً) في و(متراكباً) مع تخليق وتوظيف علاقات القوة السياسية والأيديولوجية(٣). فدور الرواية بوصفها جنساً أدبياً يتمثل في حلّ شفرة ما تتركه (أشكال الحياة) المحددة اجتماعياً ، من أثر على الأشكال الأدبية وأنظمة تتابعها ، بمعنى رصد الحركة المقابلة ، أي الطرق التي تعمل بها (أشكال الكتابة) في (أشكال الحياة) وتتفاعل معها بحيث تكون أشكال الكتابة جزءاً لا يتجزأ من أشكال الحياة (٤).

فالرواية تمثل الوسيلة التي يخاطب بها المجتمع نفسه، وكل مجتمع ولاسيما الغربي حياته عرضه للتغير والتطور وفي أوسع نطاق وعلى مر الزمن ، ولاسيما فيما يخص الحياة السياسية والاقتصادية فليس من المستغرب أن تشهد الرواية في مسيرتها تطورا هائلا تسلك ضمنه اتجاهات عدة (٥)، و "باختين " يرى إن الرواية تمثل جنسا أدبيا لا يكتمل وملىء بإمكانيات التطور والتحول ، يوجه أجناساً أخرى سابقة عليه، أصابها التكلس وانغلقت على ذاتها وفقدت إمكانيات الصعود من جديد. فضلا عن صفة الصيرورة أي إمكانية التحول. حيث تمتلك الرواية إمكانية التجدد الذاتي أو النقد الذاتي والذي يعطيها مرونة مدهشة تجعلها عصية على

الاقانيم والإشكال الثابتة [٦]. لهذا ربط باختين في دراسته عن شعرية دستويفسكي بين الرواية وجذور نثرية في أشكال أدبية قديمة منها ما جسده الخطاب الكرنفالي الذي انتقل بحمولته الى مجال الادب وفي دراسته اللاحقة عن فرانسوا رابلية والثقافة الشعبية، تعمقت نظرته لتلك الاشكال الشعبية ودورها الفاعل في ظهور الرواية وتطورها بما يجعله ينطلق من التنظير لنشأة الجنس الروائي وتطوره من تصور مختلف عن المحاولات التنظيرية الاخرى، يجعل لبعض الأنساق الكرنفالية دورا كبيرا في تحديد الجنس الادبي؛ ذلك أن باختين لا يرى الكرنفال مجرد حدث احتجاجي؛ إنه ثقافة فرعية نقدية، تشكك طقوسها وأنشطتها في الأخلاق السائدة والمعايير المتبعة، التي تقدم في سياق محكوم بقانون خارجي، كاريكاتوري وهزلي [٧] وقبل أن يتعرض باختين إلى خصوصية الفلكلور الكرنفالي الذي يجمع الهجائية المينيبية والحوار السقراطي في العمق الذي يخلصهما من الجدية الخطابية [٨]، حدد ثلاث خصائص مهمة لما يعرف بالأدب المضحك بجد والتي تعد نتيجة من نتائج التأثير الاصلاحي الجذري الخاص بالموقف الفلكلوري من العالم ([٩]):

١-أنّ هذا الصنف يستمد مادته من الواقع ومشكلاته ويعمل من خلالها على إعادة صياغة هذا الواقع، لهذا فهو مرتبط بروح العصر وتنتفي فيه المأثورات الأسطورية، كما يصبغ على الشخصيات التاريخية صفة المعاصرة.

٢-أن هذا الصنف يتكئ على الموروث، ويرجع هذا الصنف الخبرة العملية القائمة على التلفيق والاختلاف وهذا ما جعله يشكل انعطافا كاملا عمّا عرف قبله.

٣-اعتماده على التنوع الأسلوبي المتعمد لأنّه يرفض الوحدة الأسلوبية، لهذا نجد فيه تعددا للأصوات، كما يتميز أسلوبه القصصي بتعدد النغمات وبمزج الوضيع بالسامي، والمعارضة الساخرة للأصناف الجادة كما يمزج الشعر بالنثر.

وذكر باختين هذه السمات لأنّها لعبت دورا كبيرا في تطوير الرواية الأوربية عامة، ونصوص دوستويفسكي خاصة، ومن هنا عاد باختين إلى الجذور الأساسية للصنف الروائي الأولي وهي: الملحمية(قصصية، روائية) / والبيانية المتكلفة خطابية/والكرنفالية، وطغيان جذر على الآخر في فترات ما، هو ما ولد صنفا أدبيا خاصا بكلّ فترة. وبحسب باختين البحث في طبيعة الصنف الكرنفالي هو ما سيصل بنا إلى اكتشاف الخصائص الصنفية الإبداعية عند دوستويفسكي والكتابات الأدبية في عصر النهضة، لأن الكرنفال كان بمثابة العمق المشكل لما عرف بالأدب المضحك بجد الذي يضم: الحوار السقراطي، والهجائية المينيبية. هذان الصنفان كانا لهما تأثير بالغ في تطوير ما سمي بالأدب الحواري، لهذا يقف عندهما باختين بنوع من التفصيل. والحوار

السقراطي هو صنف خاص حظي بانتشار واسع في زمانه كتب فيه كل من "أفلاطون، و أقليدس، وفيدون، وغيرهم"، وهو ليس صنفا بيانيا متكلفاً أنه ينمو الاستناد الى أساس كرنفالي شعبي وهو مفعم بعمق بالموقف الكرنفالي من العالم ،ولا سيما في مرحلة تطور السقراطية الشفاهية [١٠] يقف أولا عند الحوار السقراطي الذي يعتمد على الطبيعة الحوارية التي غايتها من استعمال الحوار هو الوصول لاكتشاف الحقيقة، فسقراط ينفي أن تكون الحقيقة جاهزة، لأنها بناء، أي تُولد بين الناس وليست جاهزة عندهم، لهذا كان منهج سقراط هو الكشف الحواري عن الحقيقة.... بالاستناد إلى موقف كرنفالي شعبي. أي إثارة الحوار في جوّ يسمح لكلّ واحد فيه أن يعبر عن رأيه من دون سيطرة أو خوف إلاّ أنّ باختين يشير إلى أنّ الحوار السقراطي لم يعمر طويلا وولّد نوعا جديدا أو صنفا أدبيا آخر وهو الهجائية المينيبية التي نشأت من اضمحلال المحاورة السقراطية، وهي تبعا لروح الكرنفال حرة في الحط من قدر الأشياء وقلب الجوانب الرفيعة للعالم رأسا على عقب. وكذلك الحال مع وجهات النظر إلى العالم، وهي حرية صادمة وأكثر خشونة وحدة من المحاورة السقراطية. وبالإضافة إلى ذلك هناك في تلك الأهجية روح البحث والتساؤل والاستقصاء مع خيال طوباوي[١١].

وعليه فان حوارية سقراط والهجائية المينيبية هيأ الشروط الصنفية الضرورية فقط لظهور ما يعرف بالتعدد الصوتي والحوارية التي كانت غاية "باختين "، لهذا نقل الكرنفالية الى النثر الاوربي والرواية على وجه التحديد، وقد عرف الكرنفالية بأنها ((لغة كاملة تتكون من الاشكال الرمزية الملموسة، ابتداء من الافعال الجماعية الكبيرة والمعقدة ، وانتهاء بالجيستات الكرنفالية القائمة بذاتها، ان هذه اللغة عبرت بصورة تفاضلية وبطريقة مفهومة عن موقف من العالم. كرنفالي موحد "ولكنه معقد" متغلغل في كل صيغ هذه اللغة))[١٢].

وإن الخاصية الكرنفالية في الأنواع الأدبية قلب التراتبات الاجتماعية والحقائق الجاهزة بواسطة أصوات وطاقات كانت مقموعة عادة ولكنها تبرز مطالبة بمكانة حوارية متساوية، هي خاصية تعدد الأصوات حيث يكتسب كل صوت مركزه الخاص المستقل لغويا وفكريا ويدخل مع الأصوات الأخرى ومع صوت المؤلف في علاقة حوارية، ليست متصفة بالخضوع أو التشيؤ. وهذا يعني أن الرواية متعددة الدلالات وليس وحدة عضوية في مركزها إرادة المؤلف. ومن ناحية أخرى فإن المؤلف في النص الحواري الروائي يكتسب معنى جديدا وإن لم يصل إلى موت المؤلف. فالشخصيات عند دوستويفسكي النموذج البارز عند باختين للحوارية مكتفية بذاتها وليست مفعولا به للخيارات والخطط المتاحة أمام المؤلف الضمني بل هي متساوية الحقوق معه[١٣].

وعليه يكاد ينعقد الاجماع عند النقاد على أن الكرنفالية هي ((وصف لحيوية الرواية، وما تؤصله من نسبية بهيجة، وما تنطوي عليه من تعددية اسلوبية، واختلاف وجهات النظر وتباين الأصوات، وهي بهذا تشبه في الأدب ما يجري في مواسم الاحتفالات الجماهيرية الثقافية، خاصة ما يصاحبها من هجاء، وعبث وسخرية ، وتجاوز الحواجز الطبقية التراتبية، حيث تختلط الثقافة العليا في الثقافة الدنيا ، والثقافة الرسمية بالثقافة الشعبية ولا شك أن الكرنفالية هي ثورة ضد المعتمد الأدبي))[١٤] .

أما "بيير زيما " يرى أن الكرنفال قوة نقدية يتصادم مع أربعة عناصر مهمة في الثقافة الرسمية، بعمله على[١٥] :

١-نفي التراث عن طريق تفضيل الاستمرارية والمستقبل، الذي يجسده التحول الدائم.

٢- نفي جدية الثقافة الرسمية عن طريق التهريج والطابع البهلواني للكرنفال.

٣-المقابلة بين الزهد الروحاني للدين في العصور الوسطى، وبين الاشتغال بالحياة، بطرائق متعددة كالتأكيد على الوظائف الجنسية والبرازية للجسد، على اعتبار أن الثقافة السائدة زهدية ومثالية، في حين أن الثقافة الفرعية الكرنفالية هي مادية وشهوانية.

٤-خلق التعارض بين الحياة والموت، حيث لا يعترف الكرنفال بأخرويات اللاهوت الرسمي، وذلك بنفيه وكذا بالجمع بين الموت والميلاد. ويتم في الوقت نفسه تخطي التعارض العضوي لدى الإقطاعية بين الحياة والحياة الأبدية.

وهي بهذا أي الكرنفالية تجسيد للتعارض الموجود بين الرسمي والشعبي.

ثالثا: الأنساق الكرنفالية في رواية " حبي الضائع في بغداد"

تعد رواية حبي الضائع في بغداد للكاتب الامريكي "مايكل هستنغز، ترجمة "إيلينور منسّي"، والصادر عن دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م. مغامرات جريئة سعت إلى نزع الأقنعة، راصدة الواقع الاجتماعي والسياسي في العراق ما بعدى٢٠٠٣م حقبة الاحتلال الامريكي للعراق وسقوط النظام الشمولي . وقد حافظت الرواية إلى حد ما على وجود الحبكة الدرامية التقليدية ، كما حافظت على وجود الشخصيات ، إلا أن مغامراتها كانت تندرج في محورين أساسيين هما: الكرنفالية ، وتعدد طرائق السرد.

شخصيات كرنفالية

ينطلق السرد من لحظة لقاء " سيف " بالصحفي الامريكي "مايكل"، وقد كان سيف يُجسد في نبوءة مستقبلية ، ذلك أنَّه يمثل في الغد ضمير الأمة ولسان الشعب بصفة عامة كان سيف يمتلك احساسًا كبيراً بمشاكل الواقع ومعاناة أبناء شعبه، فضلا عن هوسهِ بتغيير الواقع

ودفعه باتجاه مرحلة جديدة لم تكن موجودة من قبل، اثناء فترة الوجود الامريكي ما بعد عام (٢٠٠٣م) هو ما يكشف عنه الحوار الذي جرى بينه وبين "مايكل " الذي التقاه أثناء واحدة من حملات الجيش الأمريكي التفتيشية للدور السكنية في مناطق بغداد ، وقد أصبحا على إثرها صديقين تربطهما علاقة مودة واحترام لأن " سيف " كان يتكلم اللغة الإنكليزية بطلاقة بسبب دراسته الأكاديمية. فضلاً عن وعيه وثقافته ، وعندما سأله "مايكل" عن انتمائه المذهبي ((إن كان سنيا أم شيعيا))[١٦] ، وهو يضطهد هذا السؤال مع أنَّه يعترف لمايكل بأنه ينتمي إلى المذهب الشيعي وهما يقفان في مكان تملؤه القاذورات حيث يسكن سيف ، يقول ((**أنظر ، انظر إن كنت سأموت على الأقل سأقبل ذلك لكن امنحوني شارعا نظيفا لكي أموت فيه !**))[١٧] . فسيف مستعدٌ لتقديم حياته من أجل أن يحصل شعبه على حياة كريمة كما تحيّا المجتمعات الأخرى. ولم يقف طموح " سيف " عند حدود التمنيات أو الأحلام وإنما حاول جاهدا وأن يقدم شيئا في سبيل ما يتطلع اليه أو يأمله ؛ ومع أنه كان يدرس الطب إلا إنه كان يحب الصحافة ، لعلها سبيله في إيصال صوته أو رسالته الى الآخر وقد أقدم على كتابة مجموعة من المقالات التي يقدم فيها صورة عن أحوال مجتمعه وما آلت إليه أوضاعه ، ولاسيما بعد الحرب حيث كان يرسلها عبر البريد الالكتروني إلى " مايكل " بعد مغادرته العراق كما جاء على لسان مايكل ((أرسل لي ذات يوم النص التالي : " لدي خبر عاجل فلقد هوجمت الكلية ". فكالمته هاتفيا وأخبرني أن كليته قد هوجمت من قبل رجل مسلح. وقال : " إن الفتيات يصرخن .. ألا تسمع صراخهن ؟ " وقال أنَّه سيكتب لي شيئا عن ذلك. وفي اليوم التالي كان الجسرُ الذي يسلكه للذهاب إلى الكلية قد تدمر من جراء التفجير))[١٨] . إنَّ اتجاه " سيف " نحو الكتابة والسعي لإيصال صوته الذي يرى فيه الواقع صوت أبناء أمته إلى الآخر الذي يقع خارج أسوار وطنه إنّما ناجم قبل أي شيء عن كونه مواطناً مخلصاً لوطنه ولأرضه التي يعيش عليها ؛ فسيف يروج لأفكاره بعيداً عن أسوار الوطن وما يعصف به ، بل يحاول أن يجر الآخر إلى بؤرة الاتهام بوساطة إقامة جسر الأمنيات معه (امنحوني) ولا شكّ أن الاستبدال الواقع بين التغيير الفكري الذي تحمل نبوءاته شخصية المثقفة العراقية " سيف " وما حدث على أرض الواقع جعل بوصلة الأمنيات والفكر تتجه إلى الآخر (الأوربي) بوصفه بديلاً قارًا ونموذجًا محتذًا يزعم تبني هاتيك الاشتراطات الفكرية ، فهي مطلب وطني تبنته النخبة المثقفة ؛ ذلك إن الوطني هو من يخوض غمار الكفاح داخل بلاده في سبيل حل المشاكل السياسية والاقتصادية ، والاجتماعية بطريقة تكفل لشعبه أكبر قدر من الحرية والرقي الروحي والأخلاقي ومن التنمية الثقافية والرخاء المادي.

ويطلعنا صوتًا آخر للشاب " محمد حيدر " الذي كان يعيش صراع بين الحلم بمجتمع مثالي ، والواقع السوداوي الذي يقف بوجه أي فرصة لتحقيق ذلك. يُعّد محمد مثالاً لمثقف عصري له علومه ومعارفه التي أكتسبها بناءً على دراسته في كلية الهندسة الميكانيكية ، ومن جراء عمله مترجما مع الصحفي الأمريكي " مايكل "الذي رافق جيش الاحتلال الأمريكي في العام (٢٠٠٣م). ودراسة " محمد " الأكاديمية عاملا مباشرا هيأ له فرصة العمل في المجال الآخر – الترجمة – بسب إتقانه اللغة الانجليزية التي اكتسبها من دراسته، وقد منحته تلك الثقافة رؤية واعية في تحليله للأمور، وكما يخبرنا "مايكل" :((فهو ليس مجرد مترجم لكنه مثقف قادر على تحليل الأمور. فقد مدني بقدر لا بأس به من الفهم لوضع البلاد.))[١٩].

ومحمد حاله حال معظم العراقيين حَلُمَ بالخلاص له ولشعبه من النظام الشمولي نظام ذو خطاب سلطوي فوقي استبدادي ، تحكم بمصائر الشعب العراقي خمساً وثلاثين عاما موصولة ومتواصلة مع مختلف أساليب القمع والإبادة الفردية والجماعية ، ولكن الخلاص الذي كان ينشده محمد لشعبه من ذلك النظام الاستبدادي الفاشي قد تحقق على يد أدارة خارجية وليس إدارة الشعب الداخلية وقواه السياسية ،وفي البدء كان محمد مثله مثل معظم أبناء الشعب العراقي يرى أن تحريرهم من التبعية على يد قوى أجنبية مقبولا ومستساغا ولو بنسبة ضئيلة لأنه المخرج الوحيد من البئر المظلم الذي ألقاهم به صدام طوال خمس وثلاثين عاماً المنصرمة كما جاء على لسان الراوي العليم:((كان محمد قد خرج بالنظرة الجوانية الأولى تجاه الاحتلال الأمريكي .. فهو يرى الجانب الطيب من الأمريكيين وما يحاولون عمله كان يكره صداماً ..)) [٢٠]. ولكن أكذوبة التحرير التي أقنع العراقيون بها أنفسهم سرعان ما ذاب عنها الجليد ، ليجد محمد نفسه وشعبه أمام منتهك أكبر ومستبد أعظم بحريتهم لأنه لا يمكن لقوى أجنبية إلا أن تكون محتلة غازية طامعة بخيرات البلد المحتل لتتحول نظرتهم إلى يقول محمد: ((مزيج من خيبة الأمل وعدم التصديق الذي تحول مع الوقت إلى أمل أخذ بالتلاشي السريع.))[٢١] ، حيث ازداد الواقع دموية في العراق ومساحة انتهاكات حقوق الإنسان تتسع على يد الجيش الأمريكي والميليشيات المسلحة التي تغذيها القوة المتنفذة ماليا وسياسيا في العراق.

ووجد " محمد " نفسه في ظل كل ما يحدث يتصارع مع سؤال تشوبه الحيرة والتخوف في ((ما إذا كان من الأفضل العيش في عالم من القمع الدكتاتوري أو في عالم من الفوضى المؤدية إلى الجنون))[٢٢] وإنَّ الحالة الفوضوية التي أصبح عليها حال العراق بعد الحرب هي التي أثارت ليس عند " محمد " فقط بل لدى معظم العراقيين ذلك السؤال المقارني بين الماضي القمعي والحاضر الدموي والفوضوي ، حيث أصبح العراق ساحة للصراع الطبقي والطائفي والديني ، كل

شيء أصبح خارج نطاق المألوف وحدود المنطق والمعقول، أصبح العنف هو اللغة السائدة ولا يعرف العراقيون غيرها لم يعد هناك رادعا عن أي شيء ليس هناك سلطة أو سيادة يقيم لها العراقيون وزنا حتى سلطة الجيش الذي كان له مكانة كبيرة عند العراقيين في السابق لم تعّد له سيطرة مطلقة ، وتجول الصورة الواقعية في الشخصية ويتأسر ضغط عقلي على ذاتها فتحاول اجتراح فكر أنتلجنسي يتجلى في موتيفات منولوجية ترتد فيها الشخصية إلى ذاتها يقول محمد: ((كيف يكون لبلد جيش يستطيع إطلاق النار عليه ولا يحدث شيء لهم ؟ إن هذه لا تدعي سيادة أو سلطة ...فالشعب يكن الاحترام للجيش))[٢٣] ، وكذلك حال الحكومة الجديدة فقد كانت مغيبة عن الوعي يقول :((تولت الحكومة العراقية الجديدة السلطة برئاسة ... رئيس الوزراء الشيعي. أنها رابع حكومة عراقية في غضون أربع سنوات. والحكومة بالكاد تؤدي أعمالها ؛ وهي غائبة عن الوعي معظم في الأوقات. إما جلسات مجلس الأمة فيتم إلغاؤها بصورة منتظمة لان ما يقل عن نصف الأعضاء الـ ٢٧٥ يحضرون للعمل. والقوات الأمريكية تتدافع وجل بغية احتواء العنف الطائفي المتصاعد وهم يقطعون وعودا باستعادة الوضع الأمني والنظام إلى بغداد)) [٢٤] لقد كان الماضي على الرغم من الظلم والجور الذي أكتنفه من النظام ما قبل ٢٠٠٣ إلاّ أنَّه كان هناك حالًا من التوازن يعيشها العراقيون النظام والقانون مفردة فاعلة في قاموس المجتمع العراقي اليومي حتى وأنْ كانت تمارس فاعليتها تحت الضغط والإكراه السلطوي ، على حين فقدت فاعليتها في الحاضر الديمقراطي الذي لطالما كان حلم العراقيين جميعًا.

لقد بدأ " محمد " يدرك أنَّ ما يحدث لا يمكن أن يكون سلطةً أو سيادة. إنَّها فوضى عارمة تجتاح بنية المجتمع ، لذلك لابدَّ من سبيل للنهوض بالواقع المعيش ، ومحمد بعد اطلاعه على حياة الغرب التي عرفها عن طريق وسيطه الثقافي الترجمة ومجابلة الآخر الغربي بعد أن اضطرته ظروف الحياة الصعبة بعد الحرب إلى ترك العمل ضمن مجال اختصاصه والعمل مع القوات الأمريكية على الرغم من عدم ثقته بالسياسة الأمريكية ، ولم يستطع محمد الإعلان عن عمله مع قوات الاحتلال حتى لأقرب أقربائه لأن الإعلان عن عمله مع الأمريكان يعرض حياته للخطر ((لم يكن محمد يثق بالسياسة الأمريكية فيما يتعلق بالعراق. فلديه طفلان لا يقول لهما انه يعمل لدى مجلة النيوزيوك ، بل أن زوجته فقط هي التي تعرف ذلك. وأصدقاؤه وأفراد أسرته الممتدة يظنون أنه مازال يعمل كمهندس لتصليح المكيفات الهوائية ... وكان محمد يعرف أنه لو حاز الأشخاص غير المناسبين على هذه المعلومات فقد يتعرض .. للقتل))[٢٥].

وبعد مضي سنتان انتقل للعمل في صحيفة (يو أس إي توداي) الأمريكية في العام (٢٠٠٥) حيث بدأ يكسب قدرا من المال يزيد عما كان يتقاضاه من قبل أنتقل على أثره إلى بيت

أفضل ، وقام باختيار الأشخاص القائمين على نقل أثاث بيته من الضباط البعثيين القدامى الذين كان محمد يصدر أوامره لهم ، ولكنه وجد القليل من المتعة في هذا الوضع الساخر. لأنه وجد نفسه أمام هامش من الحرية لم يعهده سابقاً كون لديه شعوراً بالأسى والإحباط وأحيانا بالعار لأنه وجد القوات الأجنبية تسيطر على وطنه. فكان لابد من التمرد على الواقع للحاق بما وصل إليه الغرب حتى وان كان ذلك التمرد حلما من أحلام اللاوعي التي يحلم بها الإنسان أثناء نومه والتي أطلق عليها " محمد " بـ (أحلام المتمردين) قال محمد (("نعم أنها أحلام المتمردين .. لدي منها))[٢٦] وقد انبرت تلك الأحلام لدى "محمد " بعد احتكاكه بالجيش الأمريكي أثناء فترة عمله معهم منها على لسان مايكل: ((بدت بغداد وكأنها حرم مسجدي فوق التلة. فقامت مجموعة من المراسلين على ما أظن – بالسير نحو مايشبه المركز الثقافي وكان هناك سلسلة من نقاط التدقيق لكن العشب أخضر وأشجار القبقب كثيرة فلم يكن هناك ما يدعو للقلق ، والمتمردون لا يظهرون في مثل هذا الطقس وفي بيئة نموذجية))[٢٧].

إن كل ما جاء في الحلم يحمل دلالة سيميائية إشارية يحيل على الحلم بحياة على غرار الحياة في بلاد الغرب فاختياره النبات تمثل في نوع من الأشجار التي تسمى (القبقب) أو (الإسفندان) وهو نوع من الأشجار ينمو في روسيا وأوربا وكندا، وكذلك اخضرار الأرض ونقاط التدقيق التي تشير إلى الدقة والنظام في سير الحياة هي من شواهد حال الحياة في الغرب ، أي أن الغرب يمثل له مكانا ألمعيا للأمن والاستقرار والرفاهية ، وان المتمردين لا يظهرون في بيئات يعمها النظام والاستقرار والرفاهية بل هم يتمردون على الواقع الفوضوي والقمعي الذي تعانيه شعوبهم ومجتمعاتهم.

ولعل أحلام التمرد تلبست " محمد " نتيجة ما شاهده أثناء ذهابه إلى مرفق (دي فاك) لتناول الطعام بصحبة الضابط " مايكل " ((وأعجب محمد بمرفق غسل الأيدي المعقم والمغاسل الفضية والأضواء المشرقة والصابون المضاد للبكتريا لإزالة الجراثيم. وبينت لمحمد خيارات الطعام ..فنحن في العراق لكن هذه النسخة الأمريكية منه. وهناك ايسكريم " باسكين روبنز " ونوع من السندويشات يسمى تاكو ، ودجاج محمر وهامبرغر وتشيزبرغر ومعكرونة وجميع أنواع الغاتوريد والصودا التي يمكن أن تشربها. إما العمال هناك فهم من الفلبينيين والهنود الذين تم إحضارهم بواسطة شركة كي بي أر (KBR) لإطعام الامريكين))[٢٨]، فَحَلَم " محمد " بعراق يطابق مواصفات الغرب الحديث، ولكي يحدث ذلك لابد من التمرد على الواقع.

ويقدم لنا الروائي الغربي شخصية أخرى وهي شخصية رجل الدين التحرري العصري ، الذي يسعى نحو التحرر ولا يتخذ من طرح المفاهيم والأفكار أو الصيغ والحلول السلمية سبيلا لتحقيق

مشروعه التحرري ، وإنما يعمد إلى اتخاذ أسلوب القوة والمواجهة المباشرة لتحقيق ذلك الذي يمثل سلسلة في عقد الصدر الأكبر الذي عرف بمناهضته للظلم والاستبداد ،إذ قام النظام الشمولي ما قبل ٢٠٠٣ على إعدامه ((القائد الديني الذي قتل صدام حسين والده))[٢٩] ، فقد أقدم بعد سقوط النظام على يد القوات الأمريكية على تأسيس تنظيم يضم المئات من الشباب الشيعة إن لم يكن الآلاف ولاسيما بعد حل الجيش والشرطة على يد الحاكم المدني الأمريكي (بول بريمر) وفي أول حكومة عراقية بعد مجلس الحكم ، برئاسة إياد علاوي سرعان ما دخلت الميليشيا الشيعية– على حد تعبير الروائي الغربي – في مواجهات شرسة مع قوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية في مختلف مدن العراق الوسطى والجنوبية ((.. فجيش المهدي .. قد قتل الأمريكيين ؛ وقام جيش المهدي .. إطلاق الصواريخ على المنطقة الخضراء مع الإفلات من العقاب))[٣٠].

وفي الوقت ذاته يقدم لنا الروائي الغربي شخصية لرجل دين، وفي المرحلة التاريخية نفسها ، ولكن تختلف تلك الشخصية في أفكارها ورؤاه عن قرينتها السابقة التي غلب عليها طابع الانفعال والتحدي ورفض أي شكل من أشكال المساومة مع قوات الاحتلال ، فالإنسان لا يكون حرا – بحسب رأيها إلا بحمل السلاح. على خلاف الأخر ، الذي كان يؤمن بأن خلاص الشعب العراقي وتحرره من النظام الشمولي لا يتم الاّ بالتدخل الأجنبي وعلى الرغم من امتلاكه حزبا سياسياً ، لهذا أثر التعامل والتعاون مع قوات الاحتلال الأمريكي حتى قبل دخولهم العراق لهذا كان الدبلوماسيون الأمريكيون يلقبونه ((بالمعتدل))[٣١] وقد كان المسؤولون الأمريكيون يعتمدون عليه وعلى حلفائه من السياسيين في ((المساعدة على وضع حد للعنف الطائفي))[٣٢]مع أنه كان ينفي وجود عنف طائفي في العراق وان وجد فله مبرراته يقول ((لا أظن أن هناك عنفا طائفيا ، ولكن إن وجد ، فربما له مبرراته))[٣٣] .

ويبدو لنا وفق ما خطه لنا الروائي الغربي لهاتين الشخصيتين ، أن الأولى يمثل العاطفة في النضال التحرري التي لا تخلو من المحمول الفكري ، بينما تمثل الثانية العقل والتنظيم والتخطيط ، وهما بذلك يعكسان مدى تأثير الثقافة في نضالهما ضد المحتل؛ ذلك ان الأول بحسب النص الروائي كان قد تلقى ثقافة محلية إذ عاش وترعرع داخل العراق وفي النجف الاشرف على وجه التحديد وقد أستقى معارفه وعلومه على يد علماء الحوزة الدينية في النجف الاشرف، لذلك غدا محموله الفكري إلزامياً للآخر ، أما الثاني " فقد أكسبته ثقافته المتخصصة واطلاعه على ثقافة غريبة وذلك بسبب قضائه معظم السنوات العشرين ما قبل الاحتلال خارج العراق، إلى جانب ثقافته المحلية بعدا جديدا في رؤيته للأحداث لم يكن متطابقا مع ما توافر " لقرينه الاخر ، فالشخصية العقائدية العراقية في الرواية الغربية الحديثة ، تتبوأ مقعد الشخصية

المثقفة في صراعها مع الآخر ، فهي وإن بدت تضع اشتراطات لهيمنة محمولها الفكري أحيانا ، فأنها قد تتخلى عن تلك الاشتراطات إذا ما تركت مساحة من الوجود للآخر الغربي في فضائها الفكري ، فكانت شخصية عبد العزيز الحكيم بوصفه أمين حزب شرع أهدافا للجماهير مستوحاة من رؤية سيوسياسية ، حاولت تحطيم الاشتراطات الإلزامية والطوفان فوقها لأجل كسب ثيمة التحرر ، إذ يمثل رفض الاشتراطات أو إجتزاءها تحطيم نوعا من القيود السوسيودينية التي تلاحق المجتمع من انبعاث الفكر الديني والظهور على أنه شخصية مثقفة راغبة في قيمة وجودية للآخر في كنف الثقافة الدينية المغلقة على ذاتها.

خاتمة

عندما يبدأ الباحث بحثه، وتبدأ القراءة مغامرتها مع النص بغية استجلاء الفكرة المدروسة، فان تلك القراءة يحكمها أفق انتظار يتمثل التي ستتوج بها، وافق الانتظار هنا تتعلق بالباحث ومتلقي بحثه معا، ذلك أنهما يشتركان بعملية القراءة ، ومما تقدم تبين لي أن نص الروائي الغربي عمد الى أن يقدم شخصيات روايته وقد تكلفت بمظاهر متعددة ، منها مظهر التمرد وصيغة الرفض مما يجعلها ساعية الى التغيير أو هدم الواقع وإعادة بنائه وفق متبنيات فكرية محددة كما هو الحال مع " محمد " المترجم ، و رجل الدين " الذي اثر تحكيم العقل على القوة من الرواية ذاتها. أو أن تلجأ شخصياته إلى استعمال القوة والمواجه المباشرة سبيلا لتحقيق مشروعه التحرري كما هو الحال مع رجل الدين الآخر كما قدمته الرواية .وعند تتبع المشهد الروائي كأننا بالروائي يضع القارئ أمام مشهد مسرحي، ولكنه مشهدا من دون أضواء أمامية ولا تقسيم للحاضرين داخل المسرح الى ممثلين ومشاهدين .بل هو كرنفال الكل مشاركون نشطون، والكل يقدمون قربانهم بالفعل الكرنفالي.

الهوامش

[*] – ينظر : معجم المعاني الجامع: ٣٣٣٤

[٢]– ينظر : دليل الناقد الأدبي :٢١٤

[3] – ينظر: النقد الاجتماعي للأدب نشأته وتطوره:١٥١–١٥٢

[٤] – ينظر : القصة الرواية المؤلف – دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة: ١٢.

[٥] – ينظر: الرواية:٨٥

[6] – نظرية الرواية والرواية العربية : ٧٢.

[٨] – ينظر: النقد الاجتماعي، علم اجتماع للنص الأدبي: ص١٥٧.

[٩]– ينظر :شعرية دستويفسكي:١٥٦

[10] – ينظر :شعرية دستويفسكي :١٥٦–١٥٧

[11] – ينظر : م.ن:١٦٠–١٦٣

[12] – ينظر: م. ن: ١٧٣–١٧٥

[13] – ينظر :م.ن:١٧٨

[14]– ينظر :م.ن :١٨٠

[15]– دليل الناقد الادبي :٢١٤

[16] – ينظر : النقد الاجتماعي:١٥٨–١٥٩

[17]– حبي الضائع في بغداد : ٢٦٣.

[18] – م.ن :٢٦٣

[19]– ينظر: م.ن : ٢٦٣.

[20] – م.ن:١٤٩

[21] – م.ن:١٦٤

[22]– م.ن:١٤٩–١٥٠

[23]– م.ن:١٦٤

[24] – م.ن :١٦٢

[25] – م.ن:٢٤٠–٢٤١

[26]–م.ن:١٤٨

[27]– م.ن:١٦٥

[28]– حبي الضائع في بغداد :١٦٦

[29]– م.ن:١٦٤

[30]– م.ن :٢٣٧– ٢٣٨

[31] – م.ن:٢٣٧

[32]– م.ن ٢٣٨

[33] –م.ن:٢٤١

المصادر

– رواية حبي الضائع في بغداد، مايكل هستنغز، ترجمة :إيلينور منسّي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.

– دليل الناقد الأدبي، سعد البازعي ، وميجان الرويلي،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٣، ٢٠٠٢م

– الرواية العربية روجر آلن، ترجمة : حصة إبراهيم المنيف، المجلس الأعلى للثقافة، ط١ ، ١٩٩٧م.
– شعرية دستويفسكي ، ميخائيل باختين، ترجمة جميل نصيف التكريتي، مراجعة حياة شرارة، دار توبقال،دار البيضاء، المغرب ط١، ١٩٨٦م
– القصة الرواية المؤلف – دراسات في نظرية الأنواع الأدبية المعاصرة، تودوروف كِنت بينيت كلر ، كوهن شولز لوشر ماي ، جولدمان ريد فوكو، ترجمة الدكتور خيري دومة ، مراجعة أ.د سيد البحراوي ، دار شرقيات للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٧م
– النقد الاجتماعي، علم اجتماع للنص الأدبي، بيير زيما، ترجمة: عايدة لطفي، مراجعة: أمينة رشيد، وسيد بحراوي، دار الفكر للدراسات، القاهرة، ط١، ١٩٩١، ص١٥٧.
– نظرية الرواية والرواية العربية ، د. فيصل درّاج ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٢م
– النقد الاجتماعي للأدب نشأته وتطوره، أزاده منتظري، ومحمد خاقاني، مجلة اضاءات نقدية(فصلية محكمة)، ع٦، السنة الثانية ،حزيران ٢٠١٢

Sources

1- My Lost Love in Baghdad, Michael Hastings, translated by: Eleanor Mansi, Dar Al-Kitab Al-Arabi, Beirut, 1, 2009 AD.

2 - Literary Critic's Guide, Saad Al-Bazai and Megan Al-Ruwaili, Arab Cultural Center, Casablanca, Beirut, 3rd edition, 2002

3 - The Arabic Novel, Roger Allen, translated by: Hessa Ibrahim Al-Munif, The Supreme Council of Culture, 1, 1997 AD.

Dostoevsky's Poetry, Mikhail Bakhtin, translated by Jamil Nassif Al-Tikriti, review of Sharara's life, Dar Toubkal, Casablanca, Morocco, 1st edition, 1986 AD.

4- Story Novel Author - Studies in Contemporary Literary Genres Theory, Todorov Kent Bennett Keller, Cohen Schulze-Locher May, Goldman Red Foucault, translated by Dr. Khairy Douma, revised by Prof. Dr. Sayed El Bahrawy, Dar Sharqiyat for Publishing and Distribution, Cairo, 1st Edition, 1997

5- Social Criticism, Sociology of Literary Text, Pierre Zima, translated by: Aida Lotfi, revised by: Amina Rashid, and Sayed Bahrawi, Dar Al-Fikr for Studies, Cairo, 1, 1991, p. 157.

The theory of the novel and the Arabic novel, d. Faisal Darraj, The Arab Cultural Center, Beirut, 2nd floor, 2002 AD

6- Social Criticism of Literature: Its Origin and Development, Azadeh Montazeri, and Muhammad Khaqani, Journal of Critical Illuminations (Quarterly Court), Vol. 6, second year, June 20